النوّاحة

إلى سماء عيسى

زهران القاسمي*

الكل سمع صوتها القادم من قمة الجبل، الكل يعرف حكايتها، ولكن توقف الناس عن صعود القمة بعد أن طال الزمان وتحولت الحكاية إلى رعب يعشش في كل قلب.

فاطمة النوّاحة ، لم تكن صفة النوّاحة ملصقة باسمها، لكنها منذ ان بدأت في نواح طفلها الذي مات بين يديها تلك الميتة العجيبة، منذ أن بدأت تنوحه وتنوحه حتى صارت تعرف بهذه الصفة، يكفي أن يُسأل عن اسمها ومكانها حتى يجيبك ألف لسان عنها، وعن الذي حدث.

ما حدث أن فاطمة كانت قادمة من الفلج وقد ملأت جحلتها بالماء، وعندما اقتربت من بيتها ركض طفلها الوحيد ذو الرابعة من العمر خلفها، كان يضحك ضحكته البريئة، ويطلب منها أن تعطيه بعض الماء ليشرب، أرادت فاطمة أن تعلق الجحلة ثم تسكب له في الكوب، ولكن عندما رفعتها لتعلقها في مكانها المعهود انفلت الحبل من يدها وسقطت الجحلة على رأس طفلها الطري، فشقته نصفين، سقط الطفل صريعا على الأرض، وبدأت هي في نواحها الطويل.

توجد في قمة الجبل خربة لبيت كان قد بُني على فوهة كهف كبير، صعدت فاطمة إليه وعاشت فيه، بعيدا عن البشر، هناك في خلوتها بدأت في النواح، كان صوتها يصل إلى البيوت مكتوما، وفي بعض الأيام التي يشتعل الصمت في أرجائه، يصل النواح إلى البعيد، حاول الناس مواساتها ولكن بلا فائدة، لقد اختارت حياة العزلة والنواح وظلت هناك حتى ماتت.

يقال إن النواح ما زال يجيء من القمة، يُسمع بوضوح في الأيام التي يموت فيها إنسان في القرية، كان صوتها ينبئ بالفجيعة قبل أن تحدث، كان البعض يتنبأ بالأحداث ويترقب الفجائع من صوتها، حدث ذلك في البدء عندما توفي أحد أقارب النوّاحة وهي في عزلتها، كانت الليالي التي سبقت موته تضج بنواحها، من هناك من القمة يجيء، يدخل البيوت، يقظ مضاجع النوّم، يبعث الخوف والقلق في النفوس، يوقظ الأطفال من أحلامهم وهم يصرخون، اشتكى أهل القرية إلى أقاربها، وذهب أحدهم إليها ليحدثها أن تخفف حدة نواحها، وأن تنوح في صمت، وعندما وصل إليها، عندما دخل الخربة، وجدها وقد تلبست بالسواد واستقبلت ظلمة الكهف، لم ير وجهها، كانت تنوس وهي تنوح نواحها المكتوم، سلم عليها، لكنها لم ترد عليه، لم تكترث بحضوره، تحدث معها ورجاها أن تخفف من حدة نواحها حتى لا تخيف الأطفال في الليالي، بعدها لم يسمع لها صوت، كانت هناك لا تزال تنوح بصمت، وبعد أيام حدثت الفجيعة في القرية، اشتعلت النيران في إحدى الدور وحرقت سكانها، فعاد النواح من القمة.

ماتت فاطمة النوّاحة منذ زمن بعيد، لكن النواح لا يزال يجيء من تلك القمة، يخرج من تلك الخربة، يُقسم البعض أنه سمع النواح في بعض الليالي واضحا وضوح من يتحدث إليك عن قرب، ويقول البعض أيضاأنهم لا يزالون يسمعون النواح في الليالي التي تسبق حدوث فجيعة ما في القرية، وبعد كل هذه السنين التي مرّت والتي سقطت فيها جدران الخربة وظهر الكهف عميقا ومعتما في القمة، لا يزال الكل في هيبة من صعودها ومن المرور بالقرب من ذلك المكان، ولا تزال الحكاية وكأنها حدثت بالأمس، ولا يزال الصوت مكتوما يجيء من تلك القمة.

الثلاثاء ٤ من جمادى الثانية ١٤٣١ هـ. الموافق ١٨ من مايو ٢٠١٠م
TUESDAY 18 MAY 2010

وجوه وظلال (٢٥)

طباخون

مختارات – صالح العامري*

رتابة حياة الطباخ والنادل، كما يراها الشاعر البرتغالي فيرناندو بيسوا:

ما يدهشني أكثر من غيره ليس هو البلادة التي يحيا بها أغلب الناس حياتهم، وإنما الذكاء الموجود في تلكَ البلادة.

إنّ رتابة الحيوات العامية تبدو مرعبة في الظاهرِ.

في هذا المطعم الشعبيِّ أتناول غذائي، وأنظر، فيما وراء الحاجز الخشبيّ، إلى هيأة الطباخ. وهنا بجانبي، واقفاً يوجد النادل الكهل الذي يخدمني: كما كان يفعل منذ ثلاثين عاماً في هذا المطعم.

ترى إلى أيّ نوع من الحياة تنتمي حياة هذين الرّجلين؟.

منذ أربعين عاماً ظل ذلك الرجل يعيش حياته كل يوم تقريباً داخل مطبخ. العُطل المتاحة له قصيرة. ينام نسبيا ساعات قليلة. يذهب من حين إلى آخر إلى بلدته، التي يعود منها بلا تردد ولا حسرة. يدخر ببطء مالاً لا ينبغي إنفاقه.

سوف يغدو مريضاً إذا ما أجبر على ترك مطبخه (بصفة نهائية) قصد التوجه إلى الحقول التي اشتراها. إنه مقيم في لشبونة منذ أربعين عاماً، ولم يسبق له قطّ الذهاب، حتى إلى (ساحة المركيز القريبة جدّاً من المطعم)، ولا إلى مسرح، ولديه يوم واحد فقط، مخصص لسيركه الخاص، مهرجون في الأطلال الباطنية لحياته. لقد تزوج لا أدري كيف ولا لماذا، لديهِ أربعة أبناء وبنت واحدة. أما ابتِسامته، عند انحناءته، من الجانب الآخر للعارض الخشبي نحو الجانب الذي يوجد فيه، فهي تنم عن سعادة عظيمة، بهيجة، رائعة. وهو لا يتظاهر، ولا مبرر لديه لكي يتظاهر. فإذا كان يحسّ بهذه السعادة فلأنه يمتلكها بالفعل.

وماذا عن النادل الكهل الذي يخدمني، والذي وضع أمامي كأس قهوة لعله الكأس المليون، منذ امتهن وضع كؤوس القهوة على الطاولات؟. إنه يحيا نفس حياة الطباخ، مع فارِق بالكاد يصل إلى أربعة أو خمسة أمتار: هي المسافة الفاصلة بين المطبخ الذي يوجد فيه أحدهما عنِ القسم الخارجي من المطعمِ الذي يشتغلَ فيه الثاني. هذا الكهل لديه ولدان فقط، كما أنه يعرف لشبونة أكثر من زميله. أما من حيث السعادة فما من فارق بينه وبين الأول.

..الطباخ قد تحرر من الرّتابة بسهولة أكبر مني.

من "كتاب اللاطمأنينة"، ت.البشير اخريف

******

طموحان مختلفان:

كان كافور الإخشيدي عبداً مملوكاً قبل أن يكون حاكماً على مصر. يروي سيرة قدومه قائلاً:"عندما جاؤوا بنا – أنا وصاحبٌ لي– ليبيعونا في مصر، سألتُ صاحبي: ماذا تتمنى؟ فأجابني: أتمنى أن يشترِيني طباخٌ؛ حتى أشبع من اللحم. فقلت له: أتمنى أن يشترِيني قائد الجيش؛ فأنضم إليه وأرتقي من المراتب. فكان لكلّ واحدٍ منا ما تمنّى".

******

من إحدى روايات الشاهنامة للفردوسي:

كان في قديم الزمان ملك ظالم اسمه الضحاك (أزدهاك(، كان قد ظهر في منكبيه رأسا حيتين، عجز الأطباء عن استئصالهما، فاضطروا إلى تغذيتهما بمخ إنسانين كل يوم بناء على نصيحة شيطانية، واستمر العمل بهذا النظام لفترة من الزمن، حيث عانى الناس الأمرين، وقد احتاروا في كيفية التخلص من هذا الظلم، فكان أن عثر الصديقان الذكيان أرماييل وكرماييل على حيلة من شأنها التخفيف من آلام الناس، فقد تواطآ مع طباخ الملك، فكان يكتفي بمخ إنسان بدل اثنين، فيخلطه مع مخ خروف، ثم يقدمه إلى الحيتين الشرهتين، وكان الشخص الذي تنقذه الخدعة من بين الاثنين يُرْسَلُ إلى الجبال والوهاد؛ حتى لا يراه أحد بعد ذلك، وكلما بلغ عددهم المائتين بعث لهم الطاهي عدداً من الغنم والماعز إلى الجبال، وقد تزايد عدد هؤلاء بمرور الزمن ....

******

الساقي والطباخ:

يروى أن ساقياً وطباخاً قد دخلا السجن مع يوسف عليه السلام، وسبب دخولهما السجن أنّ الملك الريّان حاكم مصر كان له عدوّ بأرض اليمن، فبعث ذلك العدوّ إلى ساقي الملك الريّان وإلى طباخه سُماً قاتلاً، وبعث صحبة السم مالاً جزيلاً، وقال لهما إن أنتما دسستما السمّ على الملك الريّان ومات فلكما عندي مال كثير أضعاف ما أرسلتُ إليكما، فأخذ الساقي والطباخ في أن يَسُمّا الملكَ رغبة فيما وعدهما به عدوّ الملك، وأرادَ كلّ منهما أن يتلف صاحبه ليفوز بقتل الملك لأجل المال، فجاء الساقي إلى الملك الريان وقال له إياك من الطباخ فإنه وضع لك السمّ في طعامك. ثم إنه جاء الطباخ بعده وقال إياك من الساقي فإنه وضع لك السمّ في الماء. فعلم الملك أنهما خائنان، فقبض عليهما وعاقبهما وأدخلهما السجن. وكانا يجلِسان بجانب يوسف ويتحدثان معه، فقال الساقي إني رأيت في المنام في هذه الليلة ثلاث طاسات من الذهب، وفي كل طاسة عنقود من العنب وكأني أعصر العنب خمراً وأسقيه الملك مرّة بعد مرّة. ثم قال له الطباخ بعد ذلك وأنا رأيتُ في منامي الليلة كأن لي ثلاث تنانير(جمع تنّور) مملوءة من النار، وكأني خبزتُ ووضعته في طبق وحملته على رأسي والطير تأكل منه. فكان الساقي صادِقاً في منامه وكان مؤمناً، وكان الطباخ كاذباً في منامه وكان كافراً مستهزئاً بيوسف. فقال لهما يوسف "يا صاحِبَيِ السِجْن أمّا أحدُكُما فيسقي رَبَّه خمراً. (أي يسقي سيّدَه). وأما الآخَرُ فيُصلبُ فتأكلُ الطيرُ مِنْ رأسِه". فلما سمع الطباخ ذلكَ قال: إني لم أر شيئاً. فقال يوسف: "قُضِيَ الأمرُ الذي فيهِ تستفتِيان". ثمّ بعد أيام أمر الملك بإخراج الطباخ، فلما أخرجَ صُلِبَ فتناهشت الطيور من رأسه كما أخبر يوسف. ثم بعد ذلك أمر بإخراج الساقي، فلما أُخْرِجَ خلع عليه وأعيد لما كان عليه...

* شاعر عماني

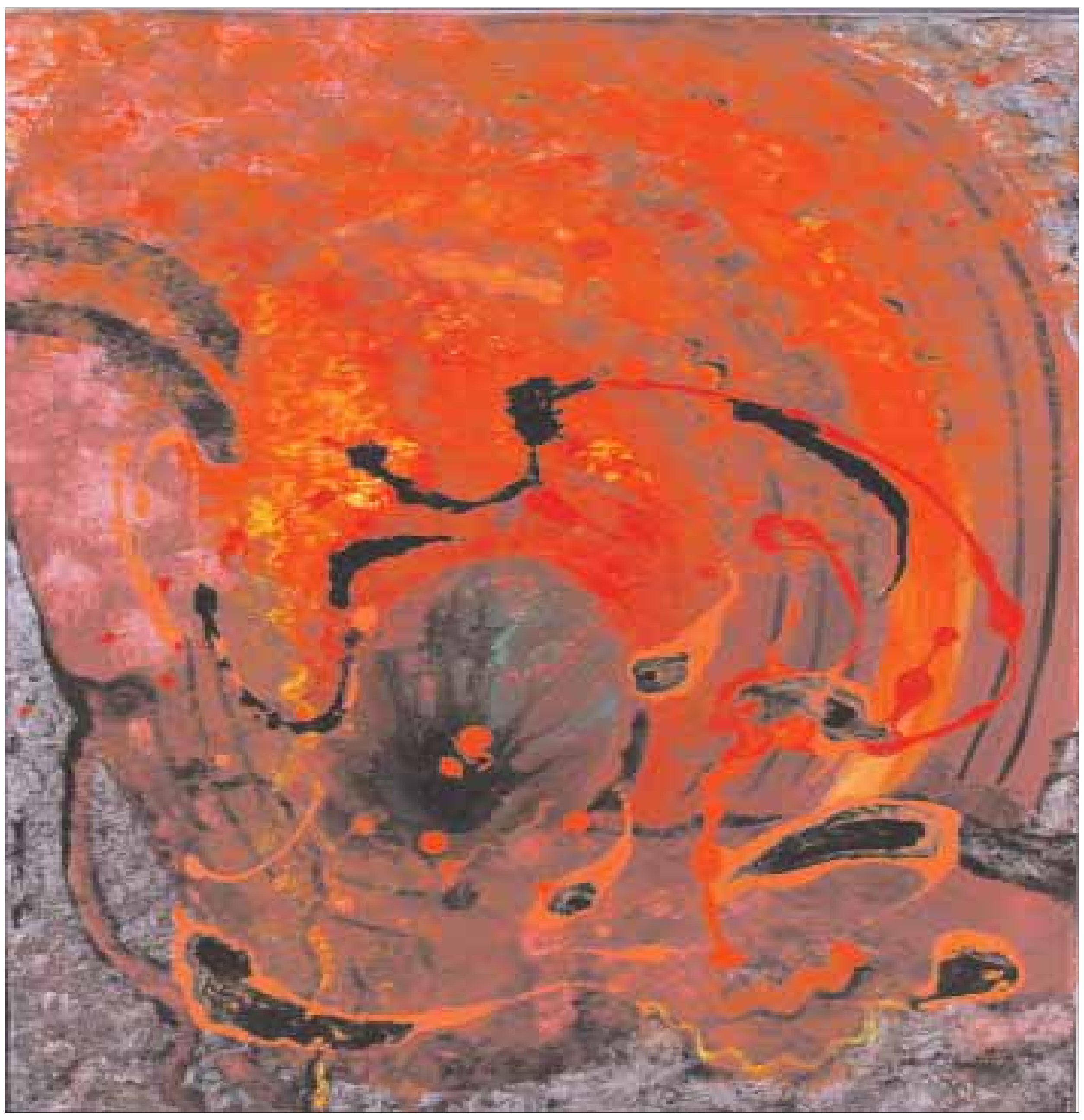
■ اللوحة للفنانة سناء الحميدي

عندما تثاءب الفجر

عبدالكريم الميمني*

■ في ذات يوم كان الفجر يتثاءب بعد غفوة طويلة ، بينما كان كل ما في الطبيعة لا يزال غافياً يكتنفه الهدوء وتغمره هالات السكينة ، وكانت بعض بذور الورود منتشحة هنا وهناك بانتظار من يوقظها ويشق طريقها إلى منارات الفضاء الفسيح ، لتتحرك مع نشوة هذا التثاؤب وتتنفس مع جمال هذا الفجر الذي يبدوا أنه يُعلن عن ميلاد عهد جديد ، فكأنها ذلك الرائد الذي يتقدم الموكب ليعلن عن قدوم أسياد النهار ، وأسياد النهار هنا هم من أحيت نفوسهم ألق الفن والجمال في هذا الوطن ، وأنبتوا لنا من خيرات قلوبهم وأفئدتهم ما نثر الروائح العبقة التي لا زلنا نستمتع كالنشوان بشم عطرها الأخاذ بين أركان بلدنا الجميل ، ولا ريب أن من عرفهم قد عرف قدرهم ومنزلتهم في بعث حركة الفنون التشكيلية العمانية ، وكان من حق الوفاء علينا التحدث من حين لآخر عنهم وتذكير من نسي فضلهم في تأسيس النهضة التشكيلية العمانية ، لأن لهؤلاء المبدعين الأوائل في أعناقنا ديناً يجب وفاءه ، بل هو من أسمى الواجبات وألزمها علينا نحن الأجيال اللاحقة ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مزية الاعتراف بالفضل ، كما أن فيهم تشجيعاً لغيرهم من الأحياء الذي يدفعهم إلى الإقتداء بهم والنسج على منوالهم . ولا ريب في أن نفراً قليلين فينا هم الذين يعرفون نهضتنا الفنية ، وأقل منهم الذين يعرفون شيئاً عن الذين عملوا لها وأقاموا دعائمها ، كما أنهم يجهلون الشيء الكثير عن الآلام المتعبة وعن البؤس الشديد الذي تحملوه وأفنوا فيه عمرهم في سبيل بناء هذه النهضة والخروج بها إلى هذا النور.

فمنذ بداية الستينيات المنصرمة وما تلاها ، قام نفر من العمانيين الذين تحرك في قلوبهم حب الجمال وتأثرت مشاعرهم بمعانية ولمعت في عيونهم أنوار هذا الوطن وروعة مناظره فسحرهم بجماله وفتنة ألوانه ، وحياة مجتمعه ، فأخذوا الريشة يلونون بها على لوحاتهم الصغيرة ما علق في نفوسهم الكبيرة ، وما لمع في عيونهم الذكية من ذلك الجمال وتلك الفتنة ، فهذه الطلائع أثرت في فنون من تلاهم ولعبت دور الريادة الحقيقي الذي بلور الفكر وجعل الإناء ينضح بما فيه من أثر فني ساق الجانب المضيء لحضارة إنسان هذا الوطن ، ومما لا شك فيه أن تلك الخطوط اللونية الأولى للفنان التشكيلي العماني على رغم بساطتها وما كان بادياً عليها من محاولات جدية لتُعد بمثابة التَشَكُل المنطقي للحالة الأولى لمراحل الإبداع التالية إلا أننا نعذر في الوقت ذاته تلك الفئة على إنتاجهم البسيط والمتواضع لوقوعه في مرحلة التكوين وما تقلبت عليه من ظروف صعبه يطول شرحها في هذا المقال ولم تتهيأ لهم الفرصة الكافية لتقدم الفن والسعي نحو تطويره في تلك الفترة بشكل كبير ، إلى أن قامت الحكومة الرشيدة برفد تلك الفئة التشكيلية بالكثير من التجهيزات التي ساعدتهم على التطور والتقدم بشكل أسرع من ذي قبل بعد أن تغلغلوا في ماضي وطنهم الثقافي وحاضرهم الغابر ودفعهم العيش في تلك المرحلة إلى وثبة متطورة نحو الفن بعد ذلك ، من خلال وضعهم الجغرافي واتصالهم المباشر مع الغرب والشرق الذي يسر لهم التزود من الفنون وغيرها ، وعلى ذلك بدأت تطالعنا بسببهم تباشير نهضة فنية محمودة أعطتنا أطيب الثمار وساهمت في ضم الفنان التشكيلي العماني بفخر إلى حلقة فنون الأمم الأخرى وقدمت النفسية الشرقية والتعبير الخالص مما له أهميته بين فنون العالم . ولقد أدرك هؤلاء أهمية رسالة الفن الثقافية التي تسير بالجمهور نحو التطور والحياة ، فاستمرت بعض تلك الفئة في مسيرتها التنويرية التي بدأتها إلى الآن وتناولوا مشعل الفن من كافة جوانبه لإتمام تلك الرسالة ، ومن أبرز رواد حركتنا التشكيلية أصحاب العطاء المتواصل الذي لم يذبل ولم يتوقف حتى الساعة الفنان أنور سونيا وأيوب ملنج والأخوة الحنيني عبدالله وخميس وسعود ومن العناصر النسائية في هذا الحقل رابحة محمود ومريم عبدالكريم ونادرة محمود وزكية البرواني وغيرهم الكثير من النماذج المضيئة في سماء الفن التشكيلي العماني الذين لا يتسع المقال لسردهم جميعا.

هذه صورة موجزة لأنوار القافلة الطويلة من رجال الفن التشكيلي الأوائل عندنا، وقد بنت لنا مجداً فنياً رائعاً وامتازت بالأمانة وحب الجمال والإخلاص في فنهم، وقضت مجاهدة بعد أن قامت بتأدية رسالتها على أكمل وجه في مرحلة التأسيس الأولية للفن التشكيلي العماني من خلال ما تركته من آثار فنية كريمة ، وإذا كان أفراد هذه العصبة المجاهدين ينالون في حياتهم التقدير الذي يستحقونه ، فلا ريب في أن الجيل الطالع ، قد عرف قدرهم وأدرك أية خدمة مشرفة قدمها هؤلاء لبلادهم بالمساهمة مع سواهم من المثقفين المبدعين ، فأعطونا سمعة طيبة بين العالم أقلها أننا نعد من البشر ، وأننا نحس ونشعر ونتذوق.■

al-maimani@hotmail.com

إن أقسى عقاب ينزل بالكذاب، ليس هو عدم تصديق الناس له، وإنما هو عدم استطاعته تصديق أحد.

برنارد شو

الآراء والمقالات المنشورة في الملحق لا تعبر بالضرورة عن رأي

Printed at AL WATAN AL OMANEYA Printing Press
طبعت بمطابع الوطن العمانية